

أثر القرآن المجيد في إصلاح
الحركة العقلية
د. عادل إبراهيم المحروق
أستاذ مشارك في الفقه وأصوله
جامعة غريان - ليبيا

anbmgs1444@gmail.com

© نُشر هذا البحث وفقاً لشروط الرخصة Attribution international (CC BY 4.0)، التي تسمح بنسخ البحث وتوزيعه ونقله بأي شكل من الأشكال، كما تسمح بتكييف البحث أو تحويله أو الإضافة إليه لأي غرض كان، بما في ذلك الأغراض التجارية، شريطة نسبة العمل إلى صاحبه مع بيان أي تعديلات أجريت عليه.

للاقتباس: المحروق، عادل إبراهيم، أثر القرآن المجيد في إصلاح الحركة العقلية، مجلة جامعة القرآن الكريم والعلوم الإسلامية، عدد خاص للمؤتمر القرآني الدولي الثالث المجلد (2)، سبتمبر 2025: 17-46.

DOI: <https://doi.org/10.61821/3rdconfv2.0203>

الملخص:

إن تبجيل القرآن المجيد للعقل يثبت أن العلاقة بين النصوص القرآنية الإلهية والمعارف العقلية البشرية هي توافق وتلازم، وهداية وبيان، ولا يستغني أحدهما عن الآخر، فكلاهما وسيلة من وسائل الكشف عن الحقائق؛ لذا فإن هذا البحث يتغيا الكشف عن حركة العقل وإصلاحها من خلال الآيات القرآنية الداعية إلى إعمال العقل والفهم؛ ذلك أن الله تعالى لم يمدح كل العقول وإنما أثني على التي تلبست بالفهم، إذ هو من العوامل المهمة التي أعانت الحركة العقلية على سديد النظر وسليم الاستنباط؛ حتى تصل إلى أرفع مستويات المعرفة والعلم، والرشاد والهداية التي ينبني عليها الثواب والعقاب؛ بل تبلغ بصاحبها أعلى درجات النفع وهو التوحيد. انتهى البحث إلى جملة من النتائج أهمها: احتفاء القرآن المجيد ببناء المنظومة الفكرية وجعل الفكر وإنعاشه أحد مقاصد القرآن العزيز التي يجب رعايتها وإقامتها والعناية بها ثم البناء العقلي في القرآن المجيد لم يكن محصوراً في جانب معين من جوانب الحياة، وإنما امتد إلى حقول المعارف والعلوم الدينية والدنيوية على حد سواء. أوجب القرآن حسن توظيف العقل، وذم من عطّله ولم يستخدمه، أو لم يُحسن استخدامه؛ فاستخدمه في غير موضعه، أو قصره في حدود ضيقة، يُعدّ حجراً عليه، وشلاً لحركته. حارب القرآن المجيد مشبّطات العقل، وقتلها في مهدها قبل ظهورها واستفحائها، وتحصين عقول الأفراد من وسائلها المؤدية إليها.

الكلمات المفتاحية: القرآن، الإصلاح، العقل.

The Impact of the Glorious Qur'an on Reforming the Intellectual Activity

Dr. Adil Ibrahim Al-Mahrooq

Associate Professor of Islamic Jurisprudence and its Principles

University of Gharyan, Libya

©This article is an open access article distributed under the terms and conditions of the Creative Commons Attribution (CC BY) license.

Citation: Al-Mahrooq, Adil Ibrahim, The Impact of the Glorious Qur'an on Reforming the Intellectual Activity, Journal of the University of Holy Quran

and Islamic Sciences, Special Issue of the third International Qur'anic Conference, Volume (2), September 2025:17-46.

DOI: <https://doi.org/10.61821/3rdconfv2.0203>.

Abstract:

Qur'an's veneration of the intellect affirms that the relationship between the Divine Qur'anic texts and the knowledge of the human intellect is one of harmony, correlation, guidance, and clarification – neither can dispense with the other. Both are means for revealing realities. Therefore, this research aims to reveal the activity of the intellect and its reform through Qur'anic verses that call for the use of reason and understanding .

Allah Almighty did not praise all intellects but rather commended those possessing comprehension, as this is a vital factor that has aided intellectual activity in sound judgment and proper inference; such that it reaches the highest levels of insight, knowledge, guidance, and rationality upon which reward or punishment depends. In fact, it leads its possessor to the highest levels of benefit, and that is Tawheed (monotheism).

The research concluded with a number of findings, the most significant of which are: The Glorious Qur'an recognizes the construction of intellectual frameworks and makes thinking and its revitalization one of its objectives that must be maintained, established, and cared for, Intellectual development in the Glorious Qur'an is not limited to a particular aspect of life but extends to both religious and worldly sciences and fields of knowledge alike, Qur'an obligates proper use of the intellect and criticizes those who neglect it, misuse it – using it where it should not be used, or restrict it to narrow scopes, as this is considered a barrier and paralysis to its activity. Qur'an combats factors that suppress the intellect, eliminating them at their roots before they manifest and exacerbate. It also fortifies individuals' minds against the causes that lead to such suppression.

Keywords: Qur'an, Reform, Intellect.

المقدمة:

الحمد لله الذي أنزل القرآن، وأمر بالتفكير في آياته، والعمل بأحكامه وتوجيهاته، والصلاة والسلام على خير من تفكر وتدبر، وعقل القرآن وتذكر، محمد عليه أزكى الصلاة والسلام، وبعد.

فإن من يتأمل النصوص القرآنية؛ يجد مظاهر احتفائها بالعقل وإعماله ظاهرة باهرة، فقد أشادت بمكانته وأعلت من قيمته، فالنصوص التي تحدثت عن العمليات العقلية، وأمرت بالنظر والتفكير في الوجود، والتدبر والتأمل في أحكام التشريع وحكمه، قد بلغت من الكثرة حدًا أعطى الإسلام مئةً انفراداً عن الشرائع كافة؛ مما يدلنا على أن الإسلام دين الفكر والعلم والعقل، دين فسح المجال وأطلق العنان له في شتى ضروب الثقافة والمعرفة، وفق ضوابط علمية وقواعد منهجية، تعصمه من الزلل، وتقيه من الوقوع في الخلل.

غني القرآن الكريم ببناء الإنسان علمياً ومعرفياً؛ فحصّن عقله وحفظه، وأصلح فكره وبعثه، ووجه الطاقات العقلية والجسمية والروحية؛ لأجل السمو بالفرد والنهوض بالمجتمع وإصلاح مفاصله، سيما في هذا العصر الذي اضطربت فيه النظم الوضعية المتنوعة، التي عجزت عن إصلاح الشعوب والمجتمعات، وفشلت في تهذيب العقول وتطوير الأفكار، فأصبح العالم الإسلامي يعيش أزمة فكر، زاده التقليد والتبعية، وفقدان الهوية.

وعليه فلا مناص للمصلحين المسلمين من الاعتماد على القرآن المجيد، والرجوع إليه، والاسترشاد بهديه لحفظ العقل وإحياء حركته وإبراز أثره في البناء المعرفي، سواء من ناحية الوجود ابتداءً بتحصيل منفعة، أو من ناحية درء المفاصل عنه أو المضار اللاحقة به؛ حتى تثمر منفعته فكراً مستقيماً، وعلومًا نافعة، ومعارف صالحة.

يروم البحث تحقيق جملة من الأهداف أنهداها:

- بيان ماهية العقل وضرورة إصلاحه في التصوير القرآني.
- إبراز المكانة السامية والمنزلة العالية للعقل في الأوامر القرآنية.
- الإسفار عن الأثر المعرفي التجديدي للعقل من خلال الآيات الكريمة.

واستجابة لكل ما فرط بيانه وتحقيقاً لذلك حوى هذا البحث بين جوانحه بياناً لمكانة العقل وأثره في اكتشاف المعارف والعلوم، وكيفية أثر القرآن المجيد في بناء منظومته وإنعاش حركته، فضلاً عما انطوى عليه البحث من الإسفار عن مكوناته، وذلك وفق المعالم الآتية.

التمهيد: تحرير المصطلحات: "القرآن، الإصلاح، العقلية".

المبحث الأول- العناية بالعقل مقصد قرآني.

المبحث الثاني- العقل وأثره المعرفي في القرآن.

المبحث الثالث- أثر القرآن في بناء المنظومة الفكرية.

التمهيد:

تحرير المصطلحات: القرآن، الإصلاح، العقلية.

أولاً - القرآن: دلالاته اللغوية ومعناه التواضعي.

● دلالاته اللغوية.

إن هذا المصطلح أسال كثيراً من المداد؛ فذكره المفسرون، وتحدث عنه المفسرون، وأطال فيه أصحاب المعاجم، غير أن الناظر فيما سطره هؤلاء حوله يجد أنه منته إلى رأيين: أول: يراه اسم علم جامد غير مشتق من شيء؛ بل هو اسم خاص بكلام الله، قال الشافعي: "وقرأت على إسماعيل بن قسطنطين، وكان يقول: القرآن اسم وليس بمهموز، ولم يؤخذ من قرأت، ولو أخذ من قرأت كان كل ما قرئ قرآنًا، ولكنه اسم لقرآن، مثل: التوراة والإنجيل، تهمز قرأت ولا يهمز القرآن"⁽¹⁾ وهذا ما اختاره السيوطي وانتصر له⁽²⁾.

أما الرأي الآخر فيرى أصحابه أنه مشتق، وانفردوا إلى قولين: فمنهم من يراه غير مهموز ونونه أصلية، وخالفهم غيرهم ورأوا أنه مهموز وهمزته أصلية، ودار حول هذه التيارات سجال عريض وجدال طويل، ولكن وبالرجوع إلى الدلالة اللغوية والاستعمال الشرعي يرى الباحث أنه "مصدر لقرأت كالرجحان والغفران؛ سمي به الكتاب المقروء من باب تسمية المفعول بالمصدر"⁽³⁾.

● المعنى التواضعي.

ليس من اليسير وضع حد للقرآن وفق المنظور المنطقي أي: بالفصول والأجناس والخواص، وهذا ما دفع بعضهم⁽⁴⁾ إلى القول بأن حدّ القرآن الحقيقي هو استحضاره معهودًا

(1) الخطيب، أحمد بن علي، تاريخ بغداد، 401/2.

(2) السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، الإتقان في علوم القرآن، 182/1.

(3) المصدر السابق، 182/1.

(4) القطان، مناع خليل، مباحث في علوم القرآن، ص 16.

في الذهن، أو مشاهدًا في الحس، أي: يشار إليه مكتوبًا في المصحف، أو مقروءًا باللسان، فتقول: هو ما بين هاتين الدفتين.

ومع هذا لم يترك الباحثون قديمًا وحديثًا وضع حد له يميزه عن غيره، ويقرب معناه، ويجلي حقيقته، وخلاصة ما ذكره أنه: كلام الله المنزل على محمد - صلى الله عليه وسلم - بواسطة جبريل، المنقول بالتواتر، والمتعبد بتلاوته، والمعجز بألفاظه ومعانيه.

ثانيًا - الإصلاح في اللغة والاصطلاح.

الإصلاح في اللغة: الصّاد واللام والحاء أصلٌ واحد يدلّ على خلاف الفساد⁽¹⁾، والاستِصلاح نقيض الاستفساد، وأصلح الشيء بعد فساده أقامه⁽²⁾.

أما في الاصطلاح فقد استخدم المفسّرون والفقهاء والعلماء عامة هذا المصطلح غير أنّ عباراتهم تباينت في حدّ ماهيته؛ وذلك بسبب اختلاف نظرهم له، ومن هذه التعريفات أنّه "استقامة الحال على ما يدعو إليه العقل والشرع"⁽³⁾.

ويقول أبو حيان هو: "اعتدال الحال واستواؤه على الحالة الحسنة"⁽⁴⁾.

ينجلي بما سلف أنّ المعنى المشترك بين كلّ التعريفات المذكورة وغيرها هو: التّغيير من الحالة السيّئة إلى الحالة الحسنة وفق ضوابط الشرع، وبهذا "يتبيّن أنّ كلمة "إصلاح" تطلق على ما هو مادي، وعلى ما هو معنوي، فيقال: أصلحت العمامة، وأصلحت بين المتخاصمين"⁽⁵⁾.

(1) ابن فارس، أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، 236/3، مادة "صلح".

(2) ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، 516/2، مادة "صلح".

(3) البقاعي، إبراهيم بن عمر، نظم الدرر، 234/4.

(4) أبو حيان، محمد بن يوسف، البحر المحيط، 191/1.

(5) وزارة الأوقاف الكويتية، الموسوعة الفقهية الكويتية، 62/5.

وقد أطلق الغربيون هذا المصطلح على ما يقابل الثورة، غير أنّ الثورة تعني استخدام العنف والقوة في التغيير، والإصلاح يكون باستخدام الرفق والتدرج في إحداث هذا التغيير، والنّهوض بالنّاس إلى المستوى الإصلاحي الأفضل.

من هنا يظهر لنا فساد الرأي القائل بأنّ الإصلاح ما هو إلا تعديل أو تطوير غير جذري في شكل الحكم أو العلاقات الاجتماعية، دون مساس بأسسها، فهو أشبه ما يكون بإقامة دعائم الخشب التي تحاول منع انهيار المباني المتداعية⁽¹⁾.

وعند استقراء هذه اللفظة ومشتقاتها في القرآن الكريم وجدتها في أكثر من مئة وسبعين موضعاً، موزعة على أربع وخمسين سورة⁽²⁾، وقد جاءت على عشرة أوجه⁽³⁾ متباينة وهي: الإيمان، وحسن المنزلة، والرفق، وتسوية الخلق، والإحسان، والطّاعة، وأداء الأمانة، وبرّ الوالدين، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والحجّ.

ثالثاً- العقل: حدّه اللغوي وطوقه الاصطلاحي.

العقل في اللغة: نقيض الجهل⁽⁴⁾، وقد انطوى جذره اللغوي على جملة من المعان، تؤوب أغلبها إلى المنع، فـ "العين والقاف واللام أصل واحد منقاس مطرد، يدل عظمه على حُبْسَةِ في الشيء، أو ما يقارب الحبسة، من ذلك العقل، وهو الحابس عن ذميم القول والفعل"⁽⁵⁾ وما سمي العقل عقلاً إلا لأنه يعقل صاحبه عن التورط في المهالك، أي: يحبسه ويمنعه؛ لذا كان من معانيه الحِجْر والنُّهْي⁽⁶⁾.

(1) الكيالي، عبد الوهاب وآخرون موسوعة السياسة، ص200.

(2) عبد الباقي، محمد فؤاد، المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، ص504.

(3) الدامغاني، عبيد الله بم محمد، إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، ص282.

(4) الفراهيدي، الخليل بن أحمد، العين، 159/1، مادة "عقل".

(5) ابن فارس، أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، 69/4، مادة "عقل".

(6) ابن منظور، محمد بن مكرم، لسان العرب، 11/ 458، 459، مادة "عقل".

ومن هذه البابة تسميتهم الدية عقلاً؛ لأنها تمسك الدم وتمنعه، وأطلقوا على الصدقة عقلاً؛ لأنها تعقل عن صاحبها الطلب بها وتمنعه، وتعقل عنه المأثم وتحبسه⁽¹⁾.

أما العقل في اصطلاحات الباحثين على تنوع اتجاهاتهم واختلاف توجهاتهم، ناله الكثير من الضبط والتطويق إلى درجة الابتذال، حتى إن بعضهم أوصلها إلى ألف تعريف، مما سبب في مدهامة سوء الفهم لمفهومه، فاكتنفه الغموض رغم وضوحه، كما زاد من ضبابية حقيقته تلك التجاذبات الفكرية من لدن المعتزلة والأشاعرة، مروراً بالمفسرين والأصوليين، وانتهاء بالحدائين المعاصرين، إضافة للتصور الميتافيزيقي له عند الفلاسفة الذين جعلوه جوهرًا قائمًا بنفسه مستقلاً عن الإنسان! وهذا السجال والجدال دفع الجويني إلى القول: "فإن قيل: فما العقل عندكم؟ قلنا ليس الكلام فيه بالهين"⁽²⁾.

وعسر التحديد عند بعضهم يؤوب إلى كثرة إطلاقات العقل وميادين استعماله، فالغزالي حينما تحدث عن ماهية العقل ذكر أن من الهوس حدّه بحد معين، ثم أرجع ذلك إلى أن اسم العقل مشترك يطلق على عدة معان: وذكر منها:

أنه يطلق على بعض العلوم الضرورية.

ويطلق على الغريزة التي يتهيأ بها الإنسان لدرك العلوم النظرية.

ويطلق على العلوم المستفادة من التجربة.

ويطلق على من له وقار وهيبة وسكينة في جلوسه وكلامه.

ويطلق على من جمع العمل إلى العلم⁽³⁾.

إن الناظر في جلّ ما ذكر من تعريفات له يجد أنها تطوّقه بوظيفته، وأياً كان معناه فإنّ البحث في ماهية العقل وكنهه ليس وراءه طائل؛ ولم تثمر فيه المباحث منذ الفلسفة اليونانية إلى اليوم ما يعود على واقع المعرفة الإنسانية؛ واستشعار هذا البحث هو الذي حول

(1) ابن فارس، أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، 71/4، مادة "عقل".

(2) الجويني، عبد الملك بن عبد الله، البرهان في أصول الفقه، 19/1.

(3) الغزالي، محمد بن محمد، المستصفى، ص20.

البحث في العقل من مجال الوجود إلى مجال المعرفة، فأصبح عند الإسلاميين بالخصوص مقصوراً في معناه على تلك المعلومات الضرورية الفطرية في الإنسان التي تكون أساساً لكل نظر واستدلال⁽¹⁾ وبهذا يتضح أن العقل آلة الإدراك والتمييز، ووسيلة الفهم والاجتهاد لمن هو أهله.

(1) النجار، عبد المجيد التونسي، خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، ص72.

المبحث الأول

العناية بالعقل مقصد قرآني.

اطرد عند العلماء كافة أن الشريعة الإسلامية قائمة على جلب المصالح وتكثيرها، ودفع المفاسد وتقليلها، وهذا مستمد من موارد الشريعة نفسها، التي في طليعتها القرآن المجيد، فالله سبحانه "أبان في كتابه ما في بعض الأحكام من المفاسد حثاً على اجتناب المفاسد، وما في بعض الأحكام من المصالح حثاً على إتيان المصالح"⁽¹⁾ وقد درج العلماء على دراسة هذه المصالح والمفاسد ضمن علم المقاصد الشرعية.

لا جرم أن المقصد الأعلى للشريعة هو صلاح حال الإنسان بما يمكنه من إقامة الخلافة في الأرض والقيام بهذه المهمة على أكمل وجوها، وهو ما دلت عليه دلائل الشريعة كلها فـ "إذا نحن استقرينا موارد الشريعة الإسلامية الدالة على مقاصدها من التشريع استبان لنا - من كليات دلائلها، ومن جزئياتها المستقرة - أن المقصد العام من التشريع فيها هو حفظ نظام الأمة، واستدامة صلاحه بصلاح المهيمين عليه وهو نوع الإنسان، ويشمل صلاحه وصلاح عقله وصلاح عمله وصلاح ما بين يديه من موجودات العالم الذي يعيش فيه"⁽²⁾ بحيث إذا حُفظ العقل تمكن الإنسان من إعمار الأرض وخلافتها.

لقد غني القرآن المجيد بالعقل عناية كبيرة وجعله مناط التكليف، وأمانة تحمل المسؤولية وخلافة الأرض قال تعالى: ﴿إِنَّا عَرَضْنَا الْأَمَانَةَ عَلَى السَّمَوَاتِ وَالْأَرْضِ وَالْجِبَالِ فَأَبَيْنَ أَنْ يَحْمِلْنَهَا وَأَشْفَقْنَ مِنْهَا وَحَمَلَهَا الْإِنْسَانُ إِنَّهُ كَانَ ظَلُومًا جَهُولًا﴾ "الأحزاب، 72" فمهمة إعمار الأرض وحفظ الوجود الإنساني التي أمر الله بها لا يمكن تحقيقها إلا بالعقل، وهذا يتجلى في أمرين: الأول- أن هذا التكليف لا يتوجه إلا للعاقل الذي امتلك القدرة على الإدراك والتمييز، ومن فقد عقله سقط عنه هذا التكليف.

(1) ابن عبد السلام، عز الدين عبد العزيز، قواعد الأحكام في مصالح الأناس، 11/1.

(2) ابن عاشور، محمد الطاهر، مقاصد الشريعة، 194/3.

الآخر - أن المكلف بها لا يمكن أن يأتي بهذه الوظيفة على أحسن تقويم إلا إذا اكتمل عقله، وكلما كسل عقله، ضعف تفكيره الذي هو حركة العقل؛ فيحجم عن كشف الحقائق من حوله، ونظرًا لهذه الأهمية جعله القرآن مقصدًا ضروريًا وأمر بحفظه.

لقد اتفقت كلمة المفسرين وعلماء المقاصد على أن حفظ العقل ضرورة دينية، وواجب شرعي، ويراد بحفظ العقل جملة من التشريعات الآمرة بإعمال العقل وتنميته، وتيسير المسالك التي تزيد من قوته وفاعليته، وإحسان توظيفه، كما أن من ضمن تلك التشريعات الحافظة للعقل: النواهي القرآنية عن السلوكات والأعمال التي من شأنها تعطيل العقل وشلّ حركته ووأد نشاطه وانتعاشه، ولما كان للعقل بعدان اثنان: مادي ومعنوي، فإن حفظه لا يكون إلا بحفظهما معًا، وبيان ذلك فيما يتلو ذكره.

أولاً - حفظ العقل معنويًا.

أثرت البدء بهذا الجانب لأهميته من جهة، ولغفلة الكتاب عنه من جهة أخرى، فالناظر فيما دوّنه علماء المقاصد - سيما المتقدمون - لا يجد إلا إشارات مقتضبة عنه؛ لذا نحاول في هذه المساحة البحثية أن نسطر أبرز عواصم العقل وفق المنظور القرآني.

- **حفظ العقل بإعماله** في ما يجلب المصالح ويدرك المفاسد العامة والخاصة، فمن وظّفه في غير هذا كان كمن لا عقل له؛ ولهذا نجد القرآن المجيد ينفي العقل ويندد بمن أساء توظيفه في الأمور النافعة، ومن ذلك التعريض بالمشرّكين الذين اتخذوا من التقليد منهجًا يسرون عليه، فعاب الله تعالى ذلك عليهم في قوله: ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنْزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَلَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لَا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلَا يَهْتَدُونَ 170 وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّ بُكْمٌ عُمْى فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ "البقرة، 170".

- **حفظ العقل بإنعاش الفكر**، إذ حقيقته إعمال العقل في المعلوم للوصول إلى معرفة مجهول⁽¹⁾ وتصوّره ذهنيًا بالتأمّل والنظر، فإنعاش الفكر الذي هو حركة العقل يفضي إلى

(1) إبراهيم، مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، 698/2، مادة "فكر".

مزيد بحث وكشف عن الحقائق من حول الإنسان، فلا شك أن وظيفة العقل التفكير، كما أن وظيفة العين أن تبصر، وتوهم أن الإنسان يعيش بعقل معطل التفكير، كتوهم أن الإنسان يعيش بعين منغمضة، ويد مشلولة، وقدم مقيدة⁽¹⁾؛ لذا أكدت النصوص القرآنية على ضرورة إعمال العقل في مجاله، وعدم تعطيله، فالآيات التي أشادت بأهمية العقل والفكر جاءت مرتبطة دائماً بالإشارة إلى حسن توظيفه، وذم من عطّله ولم يستخدمه، أو لم يُحسن استخدامه؛ فاستخدمه في غير موضعه، أو قصره في حدود ضيقة، يُعدّ حجراً عليه، وشلاً لحركته، ولكي يتحقق ذلك وجب حفظ العقل وتحرير الفكر مما يعطل وظيفته، ويهيض نشاطه، وذلك بصيانتة من جملة المعوقات، التي اخترلها عبد المجيد النجار في سببين⁽²⁾: أحدهما داخلي وآخر خارجي، ومثل للأول بالعادات والتقاليد التي الفاسدة التي يسلطها المجتمع على أفرادها، كالعادات التي ورثها الكفار من آبائهم المشار إليها في قوله سبحانه: ﴿قَالَ مُتَرَفُّوهُاءِ إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَرِهِمْ مُّقْتَدُونَ 23 * قُلْ أَوَلَوْ جِئْتُكُمْ بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدْتُمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ﴾ "الزخرف، 23" لقد حجرت التقاليد الدينية حرية التفكير واستقلال العقل على البشر حتى جاء الإسلام فأبطل بكتابه هذا الحجر، وأعتقهم من هذا الرق⁽³⁾ فيجب على الإنسان أن يحرر فكره من موروث الآباء الباطل، وينزّه عقله عن عاداتهم الفاسدة، كما يجب عليه التحرر من كل سطوة خارجية تعيق الفكر عن أن يتجه الاتجاه الصحيح، كسطوة السلطان السياسي، أو الكهنوت الديني، أو تأثيرات الشعوذة والسحر ونحوها، كي تكون حركته العقلية خاضعة لقواعد النظر السليم.

وأما الأسباب الداخلية فماكثة في اتباع الهوى وتسلبه على فكر الإنسان وعقله فيجعله يبحث عن الحقائق وفق ما يمليه هواه، فالله تعالى ندد على من حكّم هواه على عقله

(1) الغزالي، محمد السقا، حقوق الإنسان، ص 55.

(2) النجار، عبد المجيد التونسي، مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة، ص 131 وما بعدها.

(3) رضا محمد رشيد، تفسير القرآن الحكيم، 203/11.

في قوله: ﴿وَإِنَّ كَثِيرًا لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَاءٍ بِهِمْ يَبَغْيُ عِلْمٌ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ﴾ "الأنعام، 119" فهذا النص القرآني يثبت أن اتباع الهوى يفضي إلى مصادمة العلم، فكل هوى ماديا كان أو عاطفيا هو ضرب من ضروب تكبيل العقل وتوجيه حركته إلى البحث عن الحقيقة في غير مظاهرها.

ومن صور الملوثات العقلية والفكرية **الغلو والتطرف**: الذي يعد من أكثر صور الفساد العقلي والانحراف الفكري، ومن أكبر معاول هدم المجتمعات، وقد ارتكب من خلاله أبشع جرائم العصر، وأكثرها دموية وقتكا بالمسلمين؛ لذا دعت نصوص القرآن إلى الاعتدال والوسطية، ونبذ الغلو وتجاوز الحد المألوف والإفراط فيه، قال تعالى: ﴿قُلْ يَٰ أَهْلَ الْكِتَابِ لَا تَغْلُوا فِي دِينِكُمْ غَيْرَ الْحَقِّ وَلَا تَتَّبِعُوا أَهْوَاءَ قَوْمٍ قَدْ ضَلُّوا مِنْ قَبْلُ وَأَضَلُّوا كَثِيرًا وَضَلُّوا عَنْ سَوَاءِ السَّبِيلِ﴾ "المائدة، 77" هذا وإن كان وارداً في أهل الكتاب غير أنه في كل من تطرف واتبع هواه؛ إذ العبرة بعموم اللفظ، وهو مؤيد بالسنة الشريفة، فقد نقر منه النبي ﷺ وحذر أمته من مغبة الوقوع فيه، والتلبس به، فقال ﷺ: «هَلَكَ الْمُتَنَطِّعُونَ»⁽¹⁾ وهم المتشددون في أمورهم الدينية والدنيوية قولاً وفعلاً وفكراً، وقال ﷺ: «إِيَّاكُمْ وَالْغُلُوَّ فِي الدِّينِ، فَإِنَّمَا أَهْلَكَ مَنْ قَبْلَكُمْ الْغُلُوَّ فِي الدِّينِ»⁽²⁾ فالمستقرئ للسوابق التاريخية يجد أن كل خلل عقلي وانحراف فكري سببه الغلو الذي ما زال يمزق الأمة، ويقلق راحة أفرادها ومجتمعها.

ثانياً- حفظ العقل مادياً.

قام القرآن المجيد على محاربة مشبطات العقل، وقتلها في مهدها قبل ظهورها واستفحائها، وتحصين عقول الأفراد من وسائلها المؤدية إليها، فنقر من الإقدام عليها، والاقتراب منها؛ فحذرت الآيات من كل الملوثات الفكرية التي من أعظمها: الخمر، حيث إنه يعد من أكبر المفسدات المادية للعقل، وأكثرها خطراً على الفكر؛ لذا نال موضوع الخمر في القرآن والسنة مكانة لم يصلها طعام ولا شراب من نسخ وتدرج في التشريع، يقول ﷺ في

(1) مسلم، مسلم بن الحجاج، رقم 2670، كتاب العلم، باب هلك المتطعون.

(2) النسائي، أحمد بن شعيب، رقم 3057، كتاب مناسك الحج، باب النقاظ الحصى.

حكمه ﴿يَتَأْتِيهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّمَا الْحَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالْأَنْصَابُ وَالْأَزْلَمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ "المائدة، 90" وتنفيهاً للناس من شربها لعن ﷺ متعاطيها، وكل من له صلة بها، وعده خارجاً عن الإيمان، يقول أنس رضي الله عنه: «لَعَنَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ فِي الْحَمْرِ عَشْرَةً: عَاصِرَهَا، وَمُعْتَصِرَهَا، وَشَارِبَهَا، وَحَامِلَهَا، وَالْمَحْمُولَةَ إِلَيْهِ، وَسَاقِيَهَا، وَبَائِعَهَا، وَآكِلَ ثَمَرِهَا، وَالْمِشْتَرِيَ لَهَا، وَالْمِشْتَرَاةَ لَهَا» (1) لأنها أكبر عامل لاغتيال العقل الإنساني، فيسلبه الحكمة والرشاد، ويجرمه القدرة على التدبر والتفكير، ويشل ويعطل طاقاته الفكرية المتجددة وغير المحدودة.

(1) الترمذي، محمد بن عيسى، رقم 1295، أبواب البيوع، باب النهي عن أن يتخذ الخمر خلاً.

المبحث الثاني

العقل وأثره المعرفي في القرآن.

جعل القرآن العزيز العقل أداة المعرفة التفكيرية والتذكرية، كما أنه وسيلة الكشف عن الحقائق الواقعات، وتقدير المتوقعات، وإدراك النسب بين الأشياء؛ بل التأمل في آيات الله الكونية وتدبر آياته القرآنية، شاهد ذلك ومصادقه أن مادة "ع ق ل" في القرآن الكريم جاءت تسعاً وأربعين مرة؛ كلها بصيغة الفعل المضارع، ما خلا واحدة منها، وجميعها دائرة بين الثناء على من أعمله ونأى به عن التقليد والجمود والتبعية المطلقة، والتثريب على من أهمله وعطله، وهذا يؤكد أن استعمال القرآن للعقل لم يقف عند جدار الدلالة اللغوية له وهي المنع والإمساك، أو ينحصر في حركته العاطفية كالشعور والوجدان، وإنما استعمل القرآن العقل في مجال الإدراك والكشف المعياري المبني على النظر والتأمل والاستدلال؛ إذ هو وسيلة المعرفة، وهو ما أشار إليه بصيغة "أفلا تعقلون" المذكورة في ثلاثة عشر موضعاً، كلها تحمل إنكاراً وتنديداً بمن عطل عقله، وتحريضاً على تفعيله الكشفي.

إن ما يميّز العقل في القرآن المجيد أنه برهاني إدراكي، كما أنه قيمي معياري، أي لا يدرك الأشياء ويكتشفها مجردة، وإنما يجعلها وسيلة الاستقامة والهداية القائمة على جلب المنافع والمصالح، ودرأ المفاسد والقبائح، ويميّز - باعتباره قيمياً - بين الأضداد النافعة والضارة: كالخير والشر، والظلمة والنور، والحق والباطل، فالجنوح للباطل من بواعثه عدم إعمال العقل في الكشف عن مصالح الإنسان، يقول الله مصوراً هذا المعنى: ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ 10 فَأَعْتَرَفُوا بِذَنبِهِمْ فَسُحْقًا لِأَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ "الملك، 10، 11" فالمرج بين المعياري والإدراكي للعقل لا يتجلى إلا في المنظور القرآني.

تسير الحركة العقلية في سبيل الكشف عن المعرفة والحق والهداية في معطيات الحس، وإبداع هاته الحركة واستقامتها إنما هو في انطلاقها منها لإدراك ما وراءها من المعقول المجرد، ولولا تلك المعطيات الحسية التي وهبها الله للإنسان لتعثرت حركة العقل وتعطلت عن

مهامها، كحال الكفار الذين فقدوا تلك المعطيات وظيفياً⁽¹⁾ المشار إليهم بقوله: ﴿وَمَثَلُ الَّذِينَ كَفَرُوا كَمَثَلِ الَّذِي يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَاءً وَنِدَاءً صُمُّكُمْ عُمِّي فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ "البقرة، 171".

فالحواس، إذا، وسائل وأدوات ذاتية للوصول للمعرفة نصّ عليها القرآن في مواضع عدة، مندداً بمن عطّلها ولم ينتفع بها فهي كالعدم وإن وجدت حسّاً؛ ولهذا وصفهم بالصم والبكم والعمي في أكثر من موضع، كما سلب عنهم نفعها لما أعرضوا عن إعمالها فيما يعود عليهم بالخير والصلاح في قوله سبحانه: ﴿وَلَقَدْ مَكَّنَّاهُمْ فِيمَا إِنْ مَكَّنَّاكُمْ فِيهِ وَجَعَلْنَا لَهُمْ سَمْعًا وَأَبْصَرًا وَأَفْئِدَةً فَمَا أَغْنَى عَنْهُمْ سَمْعُهُمْ وَلَا أَبْصَرُهُمْ وَلَا أَفْئِدَتُهُمْ مِنْ شَيْءٍ إِذْ كَانُوا يَجْحَدُونَ بِآيَاتِ اللَّهِ وَحَاقَ بِهِمْ مَا كَانُوا بِهِ يَسْتَهْزِءُونَ﴾ "الأحقاف، 26" وعدم إعمالهم لها وغفلتهم عنها حجت عنهم المعرفة الراشدة التي تعصمهم من الوقوع في الهاوية، وران على عقولهم فزادهم غباوة وغشاوة حتى أصبحوا كالأنعام أو أضل، قال تعالى واصفاً حال حواسهم الراكدة عن إدراك ما ينفعها: ﴿ذَرَأْنَا لَهُمْ جَهَنَّمَ كَثِيرًا مِنَ الْحَرِّ وَالْإِنِّسِ لَهُمْ قُلُوبٌ لَا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَا يَسْمَعُونَ بِهَا أُولَئِكَ كَانُوا لَكُمْ أَنْذَارًا وَلَئِنْ هُمْ إِلَّا يَعْزِفُونَ﴾ "الأعراف، 179" أي إنهم عطّلوا الجانب الواعي للسمع والبصر والعقل! فلم يقبلوا ما سمعوه ولا اعتبروا بما أبصروه، ولا تأملوا في عاقبة ما عقلوه، فاشتركوا مع الأنعام التي امتلكت الآذان والأعين دون توظيفها في نجاتهم ﴿وَقَالُوا لَوْ كُنَّا نَسْمَعُ أَوْ نَعْقِلُ مَا كُنَّا فِي أَصْحَابِ السَّعِيرِ﴾ "الملك، 10".

وفي المقابل امتنّ الله سبحانه على الناس بما وهب لهم من الوسائل الذاتية للمعارف والعلوم وهي: السمع والبصر والفؤاد، قال تعالى: ﴿وَجَعَلْ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ "النحل، 78" وقال: ﴿وَهُوَ الَّذِي أَذْشَأَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ "المؤمنون، 78" وقال: ﴿قُلْ هُوَ الَّذِي أَنْشَأَكُمْ وَجَعَلَ لَكُمْ السَّمْعَ وَالْأَبْصَرَ وَالْأَفْئِدَةَ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ﴾ "الملك، 23" وإنما خصّها بالذكر؛ لأنه يتعلق بها من

(1) النجار، عبد المجيد التونسي، خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، ص75.

المنافع الدينية والدينية ما لا يتعلق بغيرها، ومقدمة منافعها أن يعملوا أسماعهم وأبصارهم في آيات الله وأفعاله، ثم ينظروا ويستدلوا بقلوبهم، ومن لم يعملها فيما خلقت له فهو بمنزلة عادمها⁽¹⁾، وهذا الإنعام يقود العاقل المتدبر إلى شكر ربه على نعمة العلم والمعرفة التي من أعظمها التوحيد ونبد الشرك، ولعظيم أمر هاته الحواس في النجاة أو الهلاك لمن ضيعها أو أسأ توظيفها قال سبحانه: ﴿إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا﴾ "الإسراء، 36".

ليس بخاف أن طرائق المعرفة وأساليب الكشف عن الحقائق، مأكثة في وسلتين: إلهية وهي المتمثلة في الوحي، وأخرى بشرية ويراد بها العقل، فالأولى معصومة؛ إذ إنها نابطة عن الله سبحانه، والأخرى نسبية لا عصمة لها؛ لأنها صادرة عن المخلوق، غير أن هاتين الوسيلتين يتحدان في الإبانة عن دروب العلم ومسالك المعرفة، وهذا يثبت عدم صوابية ما أثير حول تعارض النقل والعقل الذي أثير في ظل الاحتراب الفكري بين الطوائف، فالشريعة الإسلامية آخت وتواخي بين العقل والنقل "من هنا كانت الاستنارة بالإسلام تقرأ النقل بالعقل، وتحكم العقل بالنقل، وتوازن بين الهدايات الأربع⁽²⁾ كسبل للمعرفة، وتجمع بين مصدرَي المعرفة جميعاً، هذا هو مذهب التنوير الإسلامي في مصادر المعرفة وسبلها"⁽³⁾.

إن تبجيل القرآن المجيد للعقل يثبت أن العلاقة بين النصوص القرآنية الإلهية والمعارف العقلية البشرية هي توافق وتلازم، وهداية وبيان، ولا يستغني أحدهما عن الآخر، فكلاهما وسيلة من وسائل الكشف عن الحقائق، وقد جلى الغزالي هذا العلاقة بقوله: "اعلم أن العقل لن يهتدي إلا بالشرع، والشرع لم يتبين إلا بالعقل، فالعقل كالأس والشرع كالبناء؛ ولن يغني أس ما لم يكن بناء ولن يثبت بناء ما لم يكن أس، وأيضا فالعقل كالبصر والشرع كالشعاع،

(1) الزمخشري، محمد جار الله، الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، 198/3.

(2) الوحي، العقل، التجربة، الوجدان.

(3) عمارة، محمد مصطفى، الإسلام بين التنوير والتزوير، ص 185.

ولن يغني البصر ما لم يكن شعاع من خارج، ولن يغني الشعاع ما لم يكن بصر" (1) فلا تعارض بين السمعيات والمعقولات، وإن حصل فإنما هو في الظاهر أو لقصور في العقل وعجزه عن فهم السمع، فلا ينزوي العقل عن النص، ولا يحجب النص العقل، وهذا ما أثبتته ابن تيمية بعد استقراء وتأمل فقال: "ولكن ما علم بصريح العقل لا يتصور أن يعارضه الشرع البتة؛ بل المنقول الصحيح لا يعارضه معقول صريح قط، وقد تأملت ذلك في عامة ما تنازع الناس فيه، فوجدت ما خالف النصوص الصحيحة الصريحة شبهات فاسدة يعلم بالعقل بطلانها، بل يعلم بالعقل ثبوت نقيضها الموفق للشرع" (2).

كشفت النصوص القرآنية عن دروب المعرفة ﴿مَا قَرَرْنَا فِي الْكِتَابِ مِنْ شَيْءٍ ثُمَّ إِلَى رَبِّهِمْ يُحْشَرُونَ﴾ "الأنعام، 38" وأماطت كل العثرات أمام الوقوف عليها، وحثت الإنسان على الأخذ بها بعد أن حملته مهمة استخلاف الأرض وعمارتها، ولا يمكن للإنسان أن يحيط بهذه النصوص ويعي ما فيها من توجيهات" إما لسبب يرجع إلى العقل نفسه في ظروفه وأحواله، وإما لسبب يعود لتلك النصوص في ظروف روايتها، وإما لمقصد إلهي يجعل النصوص مناهجاً مستديماً لنظر العقل وجاذباً أبدياً لاهتمامه" (3) ولا سبيل لفهمها إلا بالاجتهاد فيها، ومن المعلوم أن حقيقة الاجتهاد هي إعمال العقل وإحياء الفكر لاستنتاج النصوص وإدراك أحكامها بطريق الاستنباط ممن هو أهل له؛ إذ من المقرر شرعاً وعقلاً أن القرآن المجيد أمر بالاجتهاد وحض عليه، وأثنى على القائمين به، وجعله سبيل العلم والمعرفة في قوله: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوْ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَى أُولِي الْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ "النساء، 83".

إن الله تعالى لم يمدح كل العقول وإنما أثنى على التي تلبست بالفهم، إذ هو من العوامل المهمة التي أعانت الحركة العقلية على سديد النظر وسليم الاستنباط حتى تصل إلى

(1) الغزالي، محمد بن محمد، معارج القدس في مدارج معرفة النفس، ص 57.

(2) ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، درء تعارض العقل والنقل، 1/147.

(3) النجار، عبد المجيد التونسي، خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، ص 92.

أرفع مستويات المعرفة والعلم، والرشاد والهداية التي يبنى عليها الثواب والعقاب؛ بل تبلغ بصاحبها أعلى درجات النفع وهو التوحيد، ففي قوله تعالى: ﴿وَأَشْهَدُهُمْ عَلَى أَنْفُسِهِمْ﴾ "الأعراف، 172" دليل على أن الله أشهدهم بناء على ما ركبه فيهم من العقل الذي يكون به الفهم ويجب به الثواب والعقاب، فالعقل الذي منه الفهم والإفهام يؤدي حتمًا إلى معرفة ربه وتوحيده⁽¹⁾، وإلى الوقوف على آياته وأحكامه، وهذا لا يكون إلا بنوعين من الفهم وهما: الأول- فهم النص ذاته من خلال إعمال العقل في ألفاظه تنقيحًا وتحقيقًا بناء على فهم مراد الله تعالى، وهذا يستلزم من العقل فهم أساليب العرب والإحاطة بها والإلمام بقواعد لسانها، ومعلوم أن دور العقل يزيد نشاطًا وتعظم حركته الفهمية وتحفه المصاعب والمتاعب إذا كانت النصوص ظنية، وتنكمش مساحته وتقل حركته ويسهل عمله إذا كانت قطعية.

وأما الآخر: فهو فهم تنزيل النص على الواقع والاستئناس به في التزود بالعلم والمعرفة، وهذه المهمة العقلية أشد خطرًا من الأولى؛ لأنها تستلزم عملاً عقليًا مضاعفًا، وذلك لارتباطه بالظروف والأحوال المتغيرة والمتجددة التي يستكنها ويظهر مؤثراتها، وهو ما أسماه الأصوليون بتحقيق المناط الخاص، الذي قال فيه الشاطبي: "لا بد منه بالنسبة إلى كل ناظر وحاكم ومفت؛ بل بالنسبة إلى كل مكلف في نفسه"⁽²⁾.

يرتبط هذا النوع من الفهم بالمقاصد الشرعية التي أمر الشارع بحفظها؛ بل إنه يزهر ويزداد نضجًا في رحابها؛ فهي ما تتغيها النصوص، وقد حصر الشاطبي الاجتهاد فمن جمع وصفين: "أحدهما: فهم مقاصد الشريعة على كمالها، والثاني: التمكن من الاستنباط بناء على فهمه فيها"⁽³⁾.

(1) ابن القيم، محمد بن أبي بكر، الروح، ص 165.

(2) الشاطبي، إبراهيم بن موسى، الموافقات، 16/5.

(3) الشاطبي، إبراهيم بن موسى، الموافقات، 41/5، 42.

ينجلي مما فرط بيانه أن إهمال أي نوع من الفهمين السالفين "فهم النص، وفهم تنزيل النص" أو التقليل من شأنه، والتفريط في إعماله يفضي إلى جنوح العقل عن سبل المعرفة فلا يهدي إليها إلا من جعل القرآن الكريم نُصب عينه ووجهة قلبه.

قمن بنا بيان أن الحركة العقلية على أهميتها الإدراكية لا تصل إلى الكشف المعرفي المطلق، أي إن هذه الحركة محدودة ومقيدة، فلا تملك القدرة على الوصول إلى الحقيقة المطلقة، فمهما ارتفعت مكانتها المعيارية والإدراكية الاجتهادية تبقى لها حدود لا تتجاوزها، ومستويات لا تتعداها؛ وما دام العقل قاصراً عن إدراك كل ممكن في عالم الحس والمشاهدة، فمن باب أولى أن يعجز عن الإحاطة بما هو فوق قدرته ومكنته، يقول ابن تيمية: "العقل شرط في معرفة العلوم وكمال وصلاح الأعمال، وبه يكمل العلم والعمل؛ لكنه ليس مستقلاً بذلك؛ بل هو غريزة في النفس وقوة فيها بمنزلة قوة البصر التي في العين، فإن اتصل به نور الإيمان والقرآن كان كنور العين إذا اتصل به نور الشمس والنار، وإن انفرد بنفسه لم يبصر الأمور التي يعجز وحده عن دركها، وإن عزل بالكلية كانت الأقوال والأفعال مع عدمه أموراً حيوانية"⁽¹⁾.

وقد جلّ ابن خلدون حقيقة العقل وطوره الذي لا يتعداه بقوله: "العقل ميزان صحيح، فأحكامه يقينية لا كذب فيها، غير أنك لا تطمع أن تزن به أمور التوحيد والآخرة، وحقيقة النبوة، وحقائق الصفات الإلهية، وكل ما وراء طوره، فإن ذلك في محال، ومثال ذلك مثال رجل رأى الميزان الذي يوزن به الذهب، فطمع أن يزن به الجبال"⁽²⁾ فالحركة العقلية نسبية، ليست كالنصوص القرآنية في القدرة على الوصول المطلق للحق والعلم والمعرفة.

(1) ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، مجموع الفتاوى، 3/338، 339.

(2) ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد، المقدمة، ص 460.

المبحث الثالث

أثر القرآن في بناء المنظومة الفكرية.

إن لمصطلح الفكر سيرة وأطواراً، وبواعث ممتدة إلى شتى ميادين العلوم والمعارف فـ " هو مفتاح الأنوار ومبدأ الاستبصار، وهو شبكة العلوم ومصيدة المعارف والفهوم"⁽¹⁾ لذا فإن من التناول العلمي السليم له - سيما في الإطار القرآني - يستلزم استصفاء المادة المعجمية، ورصد الدلالة الاصطلاحية له، كي يوطأ أكناف الحديث عنه.

الفكر لغة: الفاء والكاف والراء تردُّد القلب في الشيء، يقال تفكَّر إذا ردَّد قلبه معتبراً، ورجلٌ فكَّير: كثير الفكر⁽²⁾، وهو تصرف القلب في طلب المعنى⁽³⁾، وهو مقلوب عن الفك لكن يستعمل الفكر في المعاني، وهو فرك الأمور وبحثها طلباً للوصول إلى حقيقتها⁽⁴⁾.

الفكر اصطلاحاً: لا يبعد معناه في الاصطلاح عنه في اللغة؛ إذ هو إعمال العقل في المعلوم للوصول إلى معرفة مجهول⁽⁵⁾ وتصوّره ذهنياً بالتأمل والنظر.

وبناء على هذا فإن الفكر يطلق على أمرين: على الفعل الذي تقوم به النفس عند حركتها في المعقولات، كالنظر، والتأمل، والتدبر ونحوها، وعلى المعقولات نفسها.

غير أنه إذا أُطلق على فعل النفس دلّ على حركتها الذاتية، وهي النظر والتأمل، وإذا أُطلق على المعقولات دلّ على المفهوم الذي تفكر فيه النفس⁽⁶⁾، وأما حركة النفس في المحسوسات يسمى تخيلاً⁽⁷⁾.

(1) الغزالي، محمد بن محمد، إحياء علوم الدين، 4/423.

(2) ابن فارس، أحمد بن فارس، معجم مقاييس اللغة، 4/357، مادة "فكر".

(3) البقاعي، إبراهيم بن عمر، نظم الدرر، 4/196.

(4) الأصفهاني، علي بن الحسين، المفردات في غريب القرآن، ص 643.

(5) إبراهيم، مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، 2/698، مادة "فكر".

(6) صليبا، جميل اللبناني، المعجم الفلسفي، 2/156.

(7) الشنقيطي، محمد الأمين، آداب البحث والمناظرة، ص 15.

ويقصره أحد الباحثين على التصور الذهني للإسلام قائلاً: "الرؤية والصورة الذهنية لتصوير الإسلام في عقل الفرد وتفكيره، سواء كان في الناحية الاعتقادية أو العملية" (1). أسفر العرض السالف أن الفكر حركة العقل البشري التي تتطور بالممارسات الاجتماعية عبر سيورة الزمن وصيرورته.

يجد المتدبر في آيات القرآن المجيد أن الغرض الأسمى من إنزال القرآن هو التفكير فيه، وتأمل ما انطوى عليه، قال تعالى: ﴿وَأَنْزَلْنَا إِلَيْكَ الذِّكْرَ لِتُبَيِّنَ لِلنَّاسِ مَا نُزِّلَ إِلَيْهِمْ وَلَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ "النحل، 44" فاللام في لفظة "لتبين" دالة على العلة الأصلية في إنزال القرآن، كما أن عطف "لعلهم يتفكرون" حكمة أخرى من حكم إنزال القرآن، وهي تهيئة تفكير الناس فيه وتأملهم فيما يقرهم إلى رضى الله تعالى (2)، ويشدّ هذا ويشهد له ورود هذه المادة في ثمانية عشر موضعاً في القرآن الكريم، كلها إلا واحدة جاءت بصيغة الفعل المضارع الدال على الاستمرار والتكرار، مما يدلنا على فرضية نشاطه وأهمية تجدد، وأنه لا يركن للماضي ولا يقف عند حدود الزمان والمكان.

لئن صرح حكماء الغرب بأن التفكير هو مبدأ ارتقاء البشر، وبقدر جودته يكون تفاضلهم فيه (3)، فإن القرآن الكريم سبقهم إلى هذه الدعوة واعتنى بالفكر عناية كبيرة وجعله هو المبتدأ، وجعله مورد العلم والعمل؛ إذ "العمل تابع الحال، والحال تابع العلم، والعلم تابع الفكر، فالفكر -إذن- هو المبدأ والمفتاح للخيرات كلها، وهذا هو الذى يكشف لك فضيلة التفكير، وأنه خير من الذكر والتذكر؛ لأن الفكر ذكر وزيادة" (4) فالناظر في سياق هاته الآيات ينتهي إلى أن التفكير عملية ذهنية دقيقة وعميقة ومضبوطة.

(1) عابدين، طه حمد، الانحراف الفكري، ص 9.

(2) ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، 163/14، 164.

(3) رضا، محمد رشيد، تفسير القرآن الحكيم، 203/11.

(4) الغزالي، محمد بن محمد، إحياء علوم الدين، 426/4.

أدرك المفسرون أهمية القرآن المجيد في بناء المنظومة الفكرية للإنسان، وانتزعوا من جملة الآيات القرآنية أن الدين الإسلامي يسعى إلى بناء الفكر بناء سليماً، فهو دين الفطرة، والعقل، والفكر، والعلم، والحكمة، والبرهان والحجة، وقد سلك القرآن أساليب متنوعة في إثارة الفكر والحض عليه، ومن تلك الأساليب استعمال صيغة الاستفهام الإنكاري الدالة على الإلهاب والتحريض والحث، كقوله تعالى: ﴿قُلْ هَلْ يَسْتَوِي الْأَعْمَىٰ وَالْبَصِيرُ أَفْلا تَتَفَكَّرُونَ﴾ "الأنعام، 50" بعد أن ختم سبحانه المجادلة مع الكفار الذين عطّلوا عقولهم ولم ينفعهم تفكيرهم، شبه حال من لا يفكر ولا يفقه الأدلة ولا يوجه عقله في مصالحه بحال الأعمى الذي لا يعرف أين يقصد ولا أين يضع قدمه، وشبه حالة من يتفكر فيهندي ويميز الحقائق ولا يلتبس عليه بعضها ببعض بحالة القوي البصر حيث لا تختلط عليه الأشباح، ذيل هذا باستفهام إنكار يُندد بجنوحهم عن التفكير وإلهاب غيرهم بإعماله؛ لأن عدم استواء الأعمى والبصير بديهي لا يسعهم إلا الاعتراف بعدم استوائهما؛ فلا جرم أن يتفرع عليه إنكار عدم تفكيرهم في أنهم بأيهما أشبه⁽¹⁾.

ومن الطرائق التي حض عليها القرآن ودفع الإنسان من خلالها إلى إعمال عقله وتحريك فكره: **الإثارة والتشويق**، اللذان يدفعان إلى النظر والتأمل، فالله تعالى عندما تحدث عن الدلائل الأرضية كمد الأرض، ونصب الجبال ونحوها، عبّ ذلك بقوله: ﴿وَهُوَ الَّذِي مَدَّ الْأَرْضَ وَجَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ وَأَنْهَارًا وَمِنْ كُلِّ الثَّمَرَاتِ جَعَلَ فِيهَا رَوَاسِيَ اثْنَيْنِ يُغِشِي اللَّيْلُ النَّهَارَ إِنَّ فِي ذَلِكَ لَآيَاتٍ لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ "الرعد، 3" وفي هذا دلالة على أن مجال الفكر باقٍ بغدٍ، ولا بد بعد هذا المقام من التفكير والتأمل ليتم الاستدلال⁽²⁾.

اتخذ القرآن العزيز من **التمثيل والتصوير** أداة لصناعة التفكير وتفعيل الحركة العقلية وبعثها؛ لذا نجدها مذيّلة إما بقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ﴾ "إبراهيم، 25" أو بقوله: ﴿لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ "الحشر، 21" أو يربطها بالعقل المفضي إلى العلم في قوله تعالى: ﴿وَتِلْكَ الْأَمْثُلُ

(1) ابن عاشور، محمد الطاهر، التحرير والتنوير، 243/7.

(2) الرازي، محمد بن عمر، مفاتيح الغيب، 7/19.

نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلَّا الْعَالِمُونَ»⁴³ "العنكبوت، 43" يسفر هذا على أن لضرب الأمثال في القرآن فوائد كثيرة، كـ "ترتيب المراد للعقل وتصويره في صورة المحسوس، بحيث يكون نسبته للفعل كنسبة المحسوس إلى الحس... وتصور المعاني تصور الأشخاص، فإن الأشخاص والأعيان أثبت في الأذهان لاستعانة الذهن فيها بالحواس، بخلاف المعاني المعقولة فإنها مجردة عن الحس"⁽¹⁾ ومن شواهد ذلك قوله تعالى: ﴿لَوْ أَنزَلْنَا هَذَا الْقُرْآنَ عَلَى جَبَلٍ لَّرَأَيْتَهُ خَاشِعًا مُّتَصَدِّعًا مِّنْ خَشْيَةِ اللَّهِ وَتِلْكَ الْأَمْثَلُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَفَكَّرُونَ﴾ "الحشر، 21" فالله حينما نفى المساواة بين أصحاب النار وأصحاب الجنة، ضرب مثلاً للذين كفروا بالجلبل الصلب الذي لو كان في موضع هؤلاء المعرضين عن فهم القرآن المتناسين لله، لاتعطى الجبل وتصدع صخره من شدة تأثره بخشية الله، ختم هذا المثل المنطوي على التوبيخ والتقريع للكفار، بالإشارة إلى أن سبب جهلهم وإعراضهم هو عدم تفكيرهم وإعمال عقولهم فيما ينفعهم.

إن من مظاهر احتفاء القرآن المجيد ببناء المنظومة الفكرية أن جعل الفكر وإنعاشه أحد مقاصد القرآن العزيز التي يجب رعايتها وإقامتها والعناية بها، وهذا ما تكفل به كثير من العلماء القدامى والمحدثين الذين أدركوا أهميتها في بناء المنظومة الفكرية، فجعلها الغزالي في ستة: ثلاثة مهمّة، وثلاثة متمّة، واختزلها ابن عبد السلام في اكتساب المصالح وأسبابها، والبعد عن المفاسد وأسبابها، وتراحت تراحباً واسعاً عند محمد رشيد رضا فأطال النفس في الحديث عنها في كتابيه "التفسير، والوحي الحمدي" فأفرد لها فصلاً كاملاً في تفسيره في حدود سبعين صفحة، ثم أشبعها بياناً في الوحي الحمدي في مائة وثلاثين صفحة تقريباً، وجعل التفكير أحد هاته المقاصد التي يفضي إهمالها إلى نتائج لا يحمد غيبها، وذكر أن التفكير وبناءه السليم مقصد عظيم في القرآن المجيد؛ إذ القرآن هو الكتاب السماوي المقدس الذي تحدث عن العقل باسمه وأفعاله، وأن سواه من الكتب المقدسة حجرت العقل وقيدت حركته وألغت فاعليته؛ فجاء الإسلام بتعاليم القرآن فحرّره من قيوده وفسح له المجال لأداء

(1) الزركشي، محمد بن بهادر، البرهان في علوم القرآن، 488/1.

وظيفته، وبعد هذا البيان ختم رشيد رضا ذلك بقوله: "آيات النظر العقلي والتفكير كثيرة في الكتاب العزيز، فمن تأملها علم أن أهل هذا الدين هم أهل النظر والتفكير والعقل والتدبر، وأن الغافلين الذين يعيشون كالأنعام لا خطّ لهم منه إلا الظواهر التقليدية التي لا تركي الأنفس ولا يثقف العقول، ولا تصعد بها في معارج الكمال، يعرفان ذي الجلال والجمال"⁽¹⁾. لم يكن بناء المنظومة الفكرية في القرآن المجيد محصوراً في جانب معين من جوانب الحياة، وإنما امتد إلى حقول المعارف والعلوم الدينية والدنيوية على حد سواء، وهذا الامتداد دفع بكثير من العلماء إلى القول بوجوب إصلاحه، ف"إصلاح التفكير المبحوث عنه هنا فهو التفكير فيما يرجع إلى الشؤون في الحياة العاجلة والآجلة لتحصيل العلم بما يجب سلوكه للنجاح في الحياتين؛ كي يسلم صاحبه في الوقوع في مهاوي الأغلاط في الحياة العاجلة، وفي مهاوي الخسران في الحياة الآخرة"⁽²⁾.

لقد عظم القرآن الحكيم شأن الفكر تعظيماً كبيراً، فنزع العلماء إلى تفعيله وتهذيبه وإصلاحه، يقول ابن عاشور: "استقرت نواحي إصلاح التفكير الواردة في الإسلام استقراءً عاجلاً فانهتيت إلى ثماني نواح من أصول نجاح المرء والجماعة في المجتمع هي: تلقي العقيدة، وتلقي الشريعة، والعبادة، وتحصيل النجاة في الحالتين، والحزم، والمعاملة، والأحوال العامة، ومصادفة الحق في المعلومات"⁽³⁾.

لا ريب أن مقصد التفكير دليل ناهض على تفاعل القرآن المجيد وتناغمه الحميم مع الواقع المعيش؛ لذا نادى علماء المقاصد وأربابها بضرورة إصلاحه رعيّاً لحاجته الملحة ومصلحته المعتبرة التي تنصلح بها أحوال الناس الخاصة والعامة، وقد التفت لهذا المنحى أحمد الريسوني وتفتّن له ودعا إليه، وذكر بعض القضايا القرآنية التي تظهر فيها عناية الكتاب

(1) رضا، محمد رشيد، الوحي المحمدي، ص 177.

(2) ابن عاشور، محمد الطاهر، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، ص 51.

(3) ابن عاشور، محمد الطاهر، أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، ص 53.

العزير بتقويم الفكر وتسديد النظر، مما يثبت بجلاء أن هذا الجانب بالذات هو أحد المقاصد العامة للذكر الحكيم، وهذه القضايا هي: القرآن حجة وبرهان، والحكمة في بعدها المنهجي، ولا حكم إلا بدليل، واستعمال الأفئدة والحواس، ومنهج ضرب الأمثال⁽¹⁾.

زخرت النصوص القرآنية بعواصم راشدة تقي المنظومة التفكيرية من التصدع والانحيار، وحتى لا يلحقها العطب والخلل فتجنح إلى توليد الآراء المتشددة أو السلوكيات المنحرفة، أمرت بالعلم الضابط للتفكير والمهذب للأعمال، ومن الشواهد الدالة على ذلك أن الرسالة المحمدية افتتحت بالأمر بالقراءة التي هي آلة العلم في قوله تعالى: ﴿أَقْرَأْ بِأَسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ 1 خَلَقَ الْإِنْسَانَ مِنْ عَلَقٍ 2 أَقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ 3 الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ 4 عَلَّمَ الْإِنْسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ "العلق، 1-5" ليس يخفى أن القراءة المأمور بها هي القراءة المفضية للعلم المستمد من الوحي بعد تدبره وتأمله والنظر في هداياته وتوجيهاته، أي: القراءة المحفزة والباعث لإعمال العقل المبنية على أسس منهجية ينصلح في ظلها التفكير الإنساني.

الخاتمة

- بعد التطواف في رياض الآيات القرآنية المتحدثة عن الحركة العقلية والامتياح من ينابيعها؛ سنحت نتائج أسفرت عن زبدة مخض مباحثه، ومن أبرزها.
- لم يتفق الباحثون قديماً وحديثاً على ماهية العقل؛ ومع هذا فهو في المنظور الإسلامي آلة الإدراك والتمييز، ووسيلة الفهم والاجتهاد لمن هو أهله.
 - إن من مظاهر احتفاء القرآن المجيد ببناء المنظومة الفكرية أن جعل الفكر وإنعاشه أحد مقاصد القرآن العزيز التي يجب رعايتها وإقامتها والعناية بها.
 - لم يكن البناء العقلي في القرآن المجيد محصوراً في جانب معين من جوانب الحياة، وإنما امتد إلى حقول المعارف والعلوم الدينية والدنيوية على حد سواء.

(1) الريسوني، أحمد بن عبد السلام، مقاصد المقاصد: الغايات العلميّة والعملية لمقاصد الشريعة، ص20

وما بعدها.

- أكدت النصوص القرآنية على ضرورة إعمال العقل في مجاله، وعدم تعطيله، فالآيات التي أشادت بأهمية العقل والفكر جاءت مرتبطة دائماً بالإشارة إلى حسن توظيفه، وذمّ من عطّله ولم يستخدمه، أو لم يُحسّن استخدامه؛ فاستخدمه في غير موضعه، أو قصره في حدود ضيقة، يُعدّ حجراً عليه، وشلاً لحركته.
- قام القرآن المجيد على محاربة مثبطات العقل، وقتلها في مهدها قبل ظهورها واستفحالها، وتحصين عقول الأفراد من وسائلها المؤدية إليها، فنقّر من الإقدام عليها، والاقتراب منها؛ فحذرت الآيات من كل الملوثات الفكرية مادية كانت أم معنوية.

المصادر والمراجع

- إبراهيم مصطفى وآخرون، المعجم الوسيط، استنبول: دار الدعوة.
- البقاعي، إبراهيم بن عمر، (1424هـ) نظم الدرر، بيروت: دار الكتب العلمية.
- ابن تيمية، أحمد بن عبد الحليم، (1411هـ) (درء تعارض العقل والنقل، المملكة العربية السعودية: جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية.
- الجويني، عبد الملك بن عبد الله (1418هـ) البرهان في أصول الفقه، بيروت: دار الكتب العلمية.
- أبو حيان، محمد بن يوسف، (1413هـ) البحر المحيط، بيروت: دار الكتب العلمية.
- الخطيب، أحمد بن علي (1422هـ) تاريخ بغداد، بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- الدامغاني، عبد الله بن محمد، (1980م) إصلاح الوجوه والنظائر في القرآن الكريم، بيروت: دار العلم للملايين.
- الرازي، محمد بن عمر، (1420هـ) مفاتيح الغيب، بيروت: دار إحياء التراث العربي.
- رضا، محمد رشيد، (1426هـ) الوحي المحمدي، بيروت: دار الكتب العلمية.
- رضا، محمد رشيد، (1990م) تفسير القرآن الحكيم، مصر: الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- الريسوني، أحمد بن عبد السلام، (2013م) مقاصد المقاصد: الغايات العلمية والعملية لمقاصد الشريعة، بيروت: الشبكة العربية للأبحاث والنشر.

الزركشي، محمد بن بهادر (1376هـ) البرهان في علوم القرآن، بيروت: دار إحياء الكتب العربية.

الزحشري، محمد جار الله (1407هـ) الكشف عن حقائق غوامض التنزيل وعيون الأقاويل في وجوه التأويل، القاهرة: دار الريان للتراث.

السيوطي، عبد الرحمن بن أبي بكر، (1394هـ) الإتقان في علوم القرآن، مصر: الهيئة المصرية العامة.

الشاطبي، إبراهيم بن موسى، (1417هـ) الموافقات، القاهرة: دار ابن عفان.

الشنقيطي، محمد الأمين، (د.ت) آداب البحث والمناظرة، مكة: دار عالم الفوائد.

صليبا، جميل اللبناني، (د.ت) المعجم الفلسفي، دار الكتاب اللبناني، بيروت.

عابدين، طه حمد (1427هـ) الانحراف الفكري، مكة: معهد إحياء التراث.

ابن عاشور، محمد الطاهر (1984م) التحرير والتنوير، تونس: الدار التونسية للنشر والتوزيع.

ابن عاشور، محمد الطاهر، (1425هـ) مقاصد الشريعة، قطر: وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

ابن عاشور، محمد الطاهر، (د.ت) أصول النظام الاجتماعي في الإسلام، تونس: الدار التونسية للتوزيع.

عبد الباقي، محمد فؤاد، (1428هـ) المعجم المفهرس لألفاظ القرآن، القاهرة: دار الحديث.

ابن عبد السلام، عز الدين عبد العزيز (1414هـ) قواعد الأحكام في مصالح الأنام، القاهرة: مكتبة الكليات الأزهرية.

عمارة محمد السقا، (1423هـ) الإسلام بين التنوير والتزوير، القاهرة: دار الشروق.

الغزالي، محمد السقا، (د.ت) حقوق الإنسان، مصر: دار نخضة.

الغزالي، محمد بن محمد، (1413هـ) المستصفى، بيروت: دار الكتب العلمية.

الغزالي، محمد بن محمد، (1975م) معارج القدس في مدارج معرفة النفس، بيروت: دار الآفاق الجديدة.

- الغزالي، محمد بن محمد، (د.ت) إحياء علوم الدين، بيروت: دار المعرفة.
- ابن فارس، أحمد بن فارس، (1423هـ) معجم مقاييس اللغة، مصر: دار الكتاب العربي.
- الفراهيدي، خليل بن أحمد، (د.ت) العين، القاهرة: دار ومكتبة الهلال.
- القطان، مناع خليل، (1421هـ) مباحث في علوم القرآن، بيروت: مكتبة المعارف للنشر والتوزيع.
- ابن القيم، محمد بن أبي بكر، الروح، (د.ت) بيروت: دار الكتب العلمية.
- الكيالي، عبد الوهاب وآخرون، (1425هـ) موسوعة السياسة، بيروت: المؤسسة العربية للنشر.
- ابن منظور، محمد بن مكرم، (1414هـ) لسان العرب، بيروت: دار صادر.
- النجار، عبد المجيد التونسي، (1413هـ) خلافة الإنسان بين الوحي والعقل، بيروت: دار الغرب الإسلامي.
- النجار، عبد المجيد التونسي، (2008م) مقاصد الشريعة بأبعاد جديدة، بيروت: دار الغرب الإسلامي.